صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك

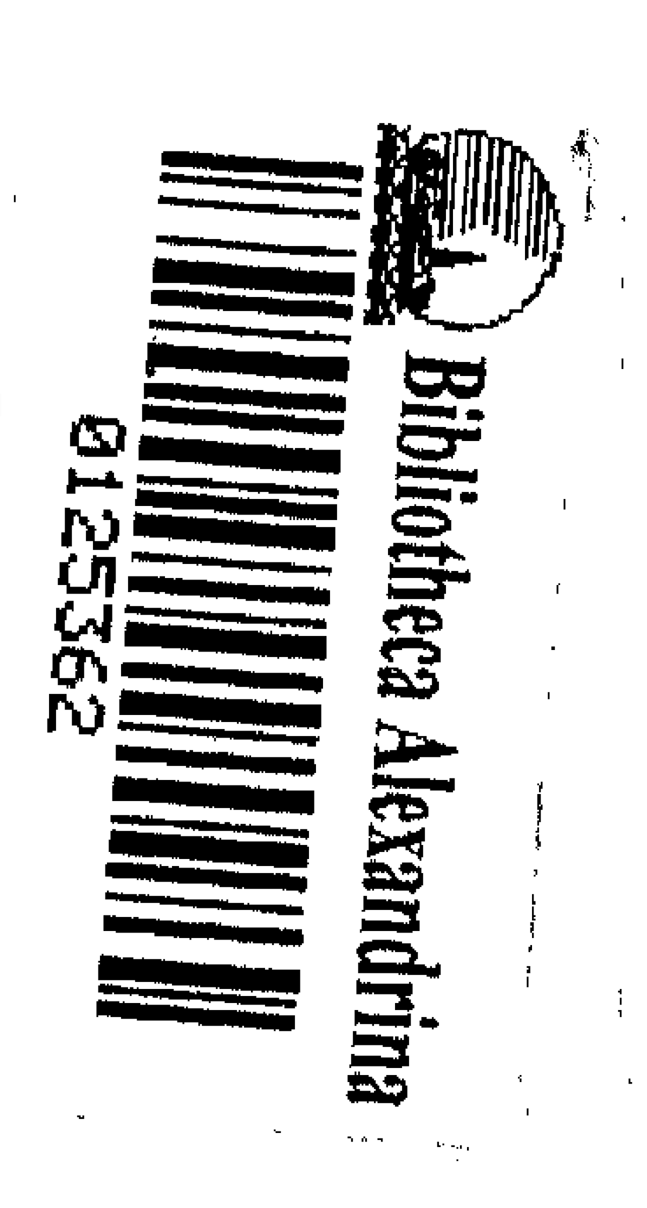
(الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية)

دكتور حامد زيان غانم

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

١٩٧٨





صفحة من تاريخ الخلافة العباسية
فى ظل دولة المماليك

صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك

(الخليفة المستعين بالله العباسي سلطان الديار المصرية)

دكتور حامد زيان غانم

كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

١٩٧٨

دار الثقافة للطباعة والنشر

بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حفل عصر سلاطين المماليك بمختلف ألوان النشاط السياسى ، واستخدم المماليك سواء كانوا سلاطين أم أمراء أساليب سياسية مختلفة للوصول إلى أهدافهم . وكانت مسألة الخلافة من بين تلك الأساليب التى أجادوا استخدامها . وإذا كان كثير من الباحثين يركزون على دبلوماسية السلطان الظاهر بيبرس وتفكيره فى إتخاذ الخلافه العباسية — بعد إحيائها فى القاهرة — ورقة راجحة لتثبيت دعائم حكمه والضرب بها على أيدى ورقاب الخارجين عن طاعته ، فإن المماليك البرجيـــة كذلك أحسنوا إستخدام هذه اللعبة ـ الخلافة ـ فى الوصول إلى أهدافهم .

وفى هذه الدراسة حاولت إيضاح دبلوماسية بعض أمراء البرجية وتلاعبهم بالخلافة العباسية للوصول إلى حكم البلاد منتهزين مايتمتع به الخلفاء العباسيون من مركز قوى فى نفوس المسلمين بصفتهم « أمراء

المؤمنين » دون النظر إلى مايتبع هذا التلاعب من أثر سيء على مركز الخلافة العباسية نفسها .

وأسأل الله التوفيق ؟

القاهرة فى { ٢١ المحرم ١٣٩٨
{ أول يناير ١٩٧٨

حامد زيان غانم

بسم الله الرحمن الرحيم

سقوط الخلافة العباسية ببغداد

المعروف أن الخلفاء العباسيين الذين تولوا الخلافة منذ عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) انقسموا إلى قسمين ، قسم أمتاز بالقوة والمهارة فى معالجة الأمور ، وهؤلاء هم خلفاء العصر العباس الأول الممتد من عام ١٣٢هـ إلى عام ٢٣٢هـ ، وقسم ثان كان الضعف هو السمه المميزة الغالبة عليه ، وهو ذلك القسم الذى أطلق عليه إسم العصر العباسى الثانى .

وبقدر ما كان لخلفاء العصر العباسى الأول — أمثال أبى العباس السفاح والمنصور والهادى والمهدى والرشيد والمأمون والمعتصم — من قوة ومهابة وعظمة فى قلوب المعاصرين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، بقدر ما كان لخلفاء العصر العصر العباسى الثانى من ضعف ومذلة وخنوع لقوة كبار القادة وما أمسوا فيه من مهانة من أمثال المستعين والمعتز والمعتمد والمقتدر وغيرهم .

والواقع أن ما أمسى فيه خلفاء العصر العباسى الثانى من ضعف

ظاهر ، وما صحبه من تحكم كبار القادة والوزراء فى شخصياتهم أدى إلى زوال تلك الخلافة نهائيا .

وينطبق هذا القول تماما على ماحدث للخليفة المستعصم بالله العباسى (٦٤٠ — ٦٥٦هـ) وما آل إليه أمره فى النهاية بالقتل على يد التتار لهو خير دليل على ذلك القول . فقد تولى وزارة المستعصم بالله الوزير أبو طالب محمد بن أحمد مؤيد الدين بن العلقمى ، وكان كما ذكر أبو المحاسن رافضيا خبيثا حريصا على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين(١) .

ويذكر المؤرخون عدة أسباب لحقد ابن العلقمى على الخلافة العباسية نشير إليها فيما يلى :

يرى ابن شاكر الكتبى أن سبب حقد ابن العلقمى على الخلافة العباسية هو أنه وقع بينه وبين الدوادار(٢) خلافاً ، وكان الدوادار سنيا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٧ ص ٤٧ .

(٢) الدوادار هو الشخص الذى يقوم بحمل دواة السلطان أو الخليفة ، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم الشكاوى إليه . (المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٦٥) .

مثاليا ، ووقف ابن الخليفة المستعصم بالله فى جانب الدوادار ، فأدى هذا هذا الخلاف الذى انتصر فيه الدوادار على ابن العلقمى إلى حقد ابن العلقمى على الدوادار والخلافة العباسية جميعا ، وأدى إلى « سعيه فى دمار الاسلام وخراب بغداد » ، وذلك نتيجة ما أصابه من ضعف بينما قوى شأن الدوادار[1] ويضيف ابن طباطبا سببا آخر فى إشتعال نار الحقد فى قلب ابن العلقمى وهو أن خواص الخليفة العباسى كرهوا ابن العلقمى وحسدوه ، فوقف ابن العلقمى منهم ومن الخلافة العباسية موقفا معاديا[2] ، أما أبو الفدا فيذكر لنا سببا آخر فى حقد ابن العلقمى على العباسيين ألا وهو : أنه عندما اشتعلت الفتنه بين السنة والشيعة ببغداد ، أمر أبو بكر ابن الخليفة المستعصم بالله وركن الدين الدوادار ، الجند بنهب منازل الشيعة « وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش » فعظم ذلك على ابن العلقمى — وكان شيعيا — « وكاتب التتر وأطمعهم فى بغداد[3] » .

---

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج٢ ص ٣١٢ — ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٤٨ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ص ١٩٣ .

ولم يلبث ابن العلقمى أن كتم حقده هذا فى نفسه فى حين أظهر للخليفة المستعصم كل حب وود ، وأخذ يدبر مؤامرة من أجل الإطاحة بالخلافة العباسية ، وساعده فى ذلك ضعف الخليفة العباسى المستعصم بالله واستكانته، وبدأ ابن العلقمى فى تدبير الفتن بين السنة والشيعة وإشعال نارها ببغداد ، حتى كانت حرباً بين الطرفين . وفى نفس الوقت نصح الخليفة المستعصم بضرورة تسريح ما لديه من جند وتوفير الأموال التى تنفق عليهم وإرسالها إلى هولاكو ، والإكتفاء بمعاضدة التتار ومحالفتهم [١] ، وقد وافقه الخليفة المستعصم على كل هذه الآراء وذلك لأن المستعصم كان كما وصفته المصادر « خاليا من الرأى والتدبير » [٢] .

وفى نفس الوقت كاتب الوزير ابن العلقمى التتار سراً وأرسل إليهم عدة رسل يحثهم فيها على غزو العراق وأخذ بغداد فى مقابل أن يكون هو نائبهم فى بغداد ، فانتهز التتار هذه الفرصة ووعدوا الوزير ابن العلقمى بما أراد . وقد أحاط ابن العلقمى تحركاته هذه بالسرية التامة ، كما أنه حجر على الخليفة بحيث جعله لا يعلم شىء عن تحركات التتار . وكان ابن العلقمى يتسلم المكاتبات من كافة الامراء ويتولى الرد عليها بما يشتهى ، لذلك لم تصل إلى أسماع الخليفة المستعصم بالله تحذيرات الأمير لؤلؤ صاحب الموصل،

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٤٨ .

(٢) ابو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ص ١٩٤ :

وتاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإربل، اللذان أرسلا كتبا إلى الخليفة يحذرانه فيها من التتار الذين بدأوا فى الزحف نحو بغداد ، ولكن الخليفة المستعصم كان « لا يتحرك ولا يستيقظ » على قول أبى المحاسن .

وأخيراً عندما تحقق الخليفة المستعصم من زحف التتار نحو بغداد ، رأى أن يرسل إليهم رسولا من قبله يعرض عليهم الأموال الكثيرة ، كما أرسل مائة رجل من قبله ليكونوا عيونا له ترصد تحركات التتار .

غير أن التتار لم يلبثوا أن ألقوا القبض على أولئك الرجال ، وواصلوا الزحف نحو العراق . وعندما اقتربوا من بغداد خرج إليهم جيش الخليفة وعلى رأسه ركن الدين الدوادار وكانت الهزيمة من نصيب جيش بغداد ، وأخذت سيوفهم ، وغرق بعضهم فى نهر دجلة ، وهرب الباقون [١] .

ثم تقدم هولاكو نحو بغداد وضرب عليها الحصار. ويبدو أن الوزير ابن العلقمى أراد أن يمضى فى شوط الخيانة إلى آخره ، فهدأ من روع الخليفة المستعصم وأشار عليه بمصانعة التتار . وخرج ابن العلقمى بنفسه لمقابلة التتار وتمم اتفاقه معهم « وتوثق لنفسه » ، ثم رجع إلى الخليفة ليوهمه بأن هولاكو يرغب فى أن يزوج ابنته من ابن الخليفة ، ويبقى الخليفة فى منصب الخلافة ، على أن تكون السلطة له ، كما كان الحال مع أجداد

---

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ٣١٣ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٤٨ — ٤٩ .

الخليفة السابقين وسلاطين السلاجقة . وأشار على الخليفة بقبول هذا العرض حتى يتجنب الحرب مع التتار ، وفى نفس الوقت نصح ابن العلقمى الخليفة المستعصم بالخروج لمقابلة هولاكو . ولم يسع الخليفة المستعصم إلا أن يسمع نصائح ابن العلقمى دون أن يدرى أنه يذهب إلى حتفه بنفسه ، ووافق المستعصم كذلك على كل الاقتراحات السابقة ، وخرج فى جمع من أعيانه وأقاربه وحاشيته .

ولم يخرج هولاكو لاستقبال الخليفة ولم يجتمع به ولم يرحب بقدومه، كما كان يتوقع المستعصم ، وإنما أنزله بخيمة أعدت له ، وفرضت عليه الحراسة . وفى نفس الوقت أشار هولاكو على الوزير ابن العلقمى باحضار فقهاء وأعيان بغداد اليه ، فأرسل اليهم ابن العلقمى يخبرهم بضرورة حضور عقد قران ابن الخليفة ، وبالفعل خرج عدد وافر من فقهاء وعلماء وأعيان بغداد متجهين إلى هولاكو ، الذى أمر بضرب أعناقهم عندما وصلوا إليه . وهنا بدأت المؤامرة التى دبرها ابن العلقمى وهولاكو تنكشف ، وتلا ذلك عبور التتار نهر دجلة حيث دخلت جيوشهم بغداد لتفتك بأهلها دون التفرقة بين صبى أو امرأة أو شيخ ، أما من بقى من القتل فقد أسر ، واستمر القتل والنهب والسبى ببغداد قرابة ثمانية وثلاثين يوماً ، وبعدها نودى بالأمان ، بعد أن بلغ عدد القتلى ببغداد حوالى ثمانمائة الف قتيل .

أما الخليفة المستعصم وحاشيته وأهل بيته ، فقد قضى عليهم هولاكو

جميعا ، وتضاربت الأقوال فى كيفية قتل هولاكو المستعصم (قتل فى ٢٠ محرم عام ٦٥٦ هـ / ٢٧ يناير ١٢٥٨ م) فمنهم من قال انه توفى خنقا، ومنهم من قال غُم فى بساط [1] وعلى هذا النحو انتهت الخلافة العباسية ، وصار العالم الاسلامى ولأول مرة بلا خليفة [2] .

أما ابن العلقمى فتحقق له ماأراد ، حيث إنتهى أمر الخلافة العباسية السنيه ، وتولى ابن العلقمى حكم بغداد نيابة عن السلطان هولاكو ، مكافأة له على خيانته للخليفة العباسى !! .

غير أن ابن طباطبا وهو المؤرخ المتوفى عام٧٠٩هـ (١٣٠٩م)دمعنى ذلك أنه كان معاصرا لأحداث تلك الفترة وشاهد عيانها برأ ابن العلقمى من تلك التهم التى لصقت به ومدحه مدحا كثيرا ، واستند ابن طباطبا فى دفاعه عن ابن العلقمى على ثقة هولاكو فيه وتسليم بغداد له عقب قتل الخليفة فيقول ابن طباطبا :

---

(١) ابو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ص ١٩٤ ،
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٩ ،
ابو المحاسن : النجوم ، جـ ٧ ص ٤٧ — ٥٠ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٣ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ ،
Muir : The Caliphate its rise, decline and fall, p. 586.

« فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه ، فلو كان قد خامر - أى ابن العلقمى - على الخليفة ، لما وقع الوثوق فيه[1] » . غير أن الحجة التى أتى بها ابن طباطبا إنما هى أكبر دليل على خيانته ، فهى تؤكد لنا حقيقة الاتفاق السابق بين هولاكو من جهة وابن العلقمى من جهة أخرى .

ويبدو أن يد القدر لم تمهل ابن العلقمى كثيراً ليتمتع بحكم بغداد نيابة عن التتار ، إذ لم يلبث أن توفى بعد قليل فى جمادى الأولى عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وفق رواية ابن طباطبا[2] ، أو فى أوائل عام ٦٥٧ هـ (١٢٥٩ م) وفق رواية ابن شاكر الكتبى[3] « غماً وغيظاً » ، وذلك لأنه عومل معاملة سيئة جداً من جانب التتار[4] ، وقد روى ابن شاكر الكتبى رواية تفيد ما وقع فيه ابن العلقمى من مذلة وهوان نذكرها فيما يلى :

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٩ .

(٣) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ٣١٣ .

(٤) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ٣١٣ ، ابو المحاسن : النجوم ، جـ ٧ ص ٥٠ .

« حكى انه — أى ابن العلقمى — كان جالساً بالديوان ، فدخل عليه بعض التتار ، ممن ليس له وجاهه ، راكبا فرسه ، فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير ، وخاطبه بما أراد ، وبال الفرس على البساط ، وأصاب الرشاش ثياب الوزير ، وهو صابر لهذا الهوان ، يظهر قوة النفس ، وأنه بلغ مراده !! » .

وعندما أحس بعض أصحاب ابن العلقمى من أهل بغداد ، بما أصابه من مذلة وهوان قالوا له : يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حميه ، وحميت الشيعة ، وقد قتل من الأشراف الفاطميين خلقا لا تحصى ، وارتكبت الفواحش مع نسائهم ، فقال : بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك ! »[1] .

أما عن شخصية ابن العلقمى هذا فقد ذكر عنه المؤرخون انه كان لبيبا كريما وقورا ، محبا للرياسة ، كثير التجمل ، رئيسا متمسكا بقوانين الرياسة ، خبيرا بأدوات السياسة ، يحب أهل الأدب ويقرب أهل العلم ، وذلك لأنه اشتغل فى مستهل حياته بالأدب[2] ، كما سمع الحديث[3] ،

---

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، حـ ٢ ص ٣١٣ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٤٨ ،

(٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، حـ ٢ ص ٣١٤ .

وكان رافضياً خبيثاً [١] . ومن أموره الخبيثة تلك الحيلة التى اتبعها فى مراسلة التتار عندما « أخذ رجلاً وحلق رأسه حلقا بليغا وكتب ما أراده عليه بالإبر ، ونفض عليه الكحل وتركه عنده إلى أن طلع شعره وغطى ما كتب، فجهزه وقال له : إذا وصلت مرهم بحلق رأسك ودعهم يقرأون ما فيه ، وكان فى آخر الكلام « اقطعوا الورقة » فضربت عنقه . وهذا غاية فى المكر والخزى » [٢] .

وعلى أية حال فقد انتهت الخلافة العباسية ببغداد نهاية مؤسفة على يد جحافل التتار وبمساعدة ابن العلقمى، تلك الخلافة التى استمرت قائمة أكثر من أربعة قرون ما بين قوة وضعف ، ولكن حتى فى أيام ضعفها كان الخليفة واسمه له وقع كبير فى نفوس المسلمين .

الظاهر بيبرس واحياء الخلافة العباسية بالقاهرة :

أحس السلطان الظاهر بيبرس(٦٥٨ — ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ — ١٢٧٧م) عقب انفراده بحكم مصر انه فى حاجة إلى تأييد شرعى لملكه خاصة وأن كثيرا من الأعداء ظلوا متربصين به ، فهؤلاء بقايا ملوك البيت بيلاد الشام وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، الذى أخذ يعمل من

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ، جـ ٧ ص ٤٧ .

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ٣١٥ .

أجل انتزاع حكم مصر من يد المماليك ، وما لبث يذكر المماليك بأصلهم الوضيع وأنهم ما إلا « مماليك قد مسهم الرق » ، ومن جهة أخرى ظل التتار الذين اتخذوا بغداد مركزاً لهم ، ظلوا مهددين حكم بيبرس فى مصر تهديداً كبيراً ، ومن جهة ثالثة لم يكن للمماليك قوة شرعية يستندون اليها فى حكم البلاد ، لذلك بحثوا عن قوة تحميهم وتمنحهم حكما شرعيا للبلاد، ففكر السلطان الظاهر بيبرس فى إحياء الخلافه العباسية ، لتكون تلك القوة التى يستند اليها حكمه فى مصر بالإضافة إلى ذلك فحامى حمى الخلافة لا بد وأن يكون هو صاحب السيادة العليا على ما عداه من ملوك وحكام ، وهذا ما عناه بيبرس ، ويعطيه أيضا الحق فى الاشراف على الحرمين الشريفين ، بالاضافة إلى مكانة مرموقة فى نظر الحكام المسلمين [1] . هذه الأسباب وغيرها هى التى دفعت السلطان الظاهر بيبرس على الاقدام لإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة [2] .

على أنه من الجدير بالذكر ان السلطان الظاهر بيبرس لم يكن هو أول من فكر فى أن تكون مصر هى مقر الخلافة ، فقد سبقه إلى ذلك الأمير أحمد بن طولون عندما رحب بالخليفة المعتمد أثناء الخلاف الذى حدث بين المعتمد وأخيه الموفق طلحه عام ٢٦٩هـ (٨٨٢م) غير أن مشروع

---

(1) Demombynes : Muslim Institutions, p 111, 112.

(٢) على ابراهيم حسن : دراسات فى عصر المماليك البحرية ، ص٢٢١ - ٢٢٢

أحمد بن طولون لم يتحقق نتيجة قبض الموفق على المعتمد والحجر عليه ببغداد. وتجدد أمل حكام مصر فى نقل الخلافة العباسية إلى مصر زمن محمد بن طغج الأخشيد عندما تأزم الموقف بين المتقى وبين الحمدانيين والأتراك عام ٣٣٣هـ (٩٤٤م). كذلك رحب السلطان المظفر قطز بالأمير أبى العباس أحمد وهو أحد امراء البيت العباسى الفارين من وجه التتار عقب موقعة عين جالوت وأشار على أصحابه بأنه « إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله[1] » . كما أنه يقال أن الملك الناصر يوسف صاحب دمشق رأى هو الآخر ضرورة إحياء الخلافة العباسية بدمشق حتى يتسنى له بسط سلطانه على بقية الممالك الاسلامية[2] .

غير أن السلطان الظاهر بيبرس كان هو أول من نفذ فكرة إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة تنفيذا عمليا . فعندما أرسل إليه بعض أمراء بلاد الشام يخبروه بوصول رجلا إلى دمشق يسمى أحمد ابن الامام الظاهر ابن الامام الناصر العباسى ومعه جماعة من عرب خفاجة ، سارع السلطان

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ، ص ٩٣ وعن شخصية أبى العباس أحمد انظر السيوطى : تاريخ الخلفا ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) ابن أبى الفضائل . النهج السديد ، ص ٩٢ — ٩٣ ، السيوطى : تاريخ الخلفا ، ص ٣١٧ — ٣١٨ .

الظاهر بيبرس بالكتابة إلى هؤلاء الأمراء بضرورة التحفظ على هذا الأمير العباسى وإرساله فوراً صحبة بعض الحرس إلى مصر .

وعندما إقترب الأمير أحمد العباسى من مصر خرج لقائه الظاهر بيبرس بنفسه ومعه الوزير بهاء الدين وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وبعض الأمراء ، كذلك خرج فى إستقباله اليهود حاملين التوراه والنصارى حاملين الانجيل وساروا جميعا إلى المطرية لإستقباله . ولم يلبث أن ترجل الظاهر بيبرس حين تقابل مع الخليفة الجديد ، وعانقه ، وسار الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس وبصحبته السلطان الظاهر بيبرس حتى وصلا إلى قلعة الجبل (عام٦٥٩ هـ[١]) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن دعى إلى عقد مجلسا عاماحضره قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والقضاه والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بصحة نسب الخليفة الجديد ، وشهد فى هذا الاجتماع العربان الذين حضروا من دمشق صحبة الخليفة الجديد بأن نسبه يتصل بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر بذلك بعض القضاه والفقهاء ، وقبل قاضى

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٣ ص ٥٤٠ ،
المقريزى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٤٤٨ ،
Muir : The Caliphate, P 581.

القضاه هذه الشهادة (١) . فقام السلطان الظاهر بيبرس وبايعه على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ الأموال بحقها وصرفها فى مستحقيها ، وتبعه القضاة والعلماء ، ثم أخذت له البيعة بعد ذلك من سائر الناس ، كما نقشت السكه باسمه وأمر بالدعاء له فى الخطبة ولقب بالمستنصر بالله ، وبذلك تم إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة (٢) ، بعد أن ظل العالم الإسلامى بلا خليفة لمدة ثلاث سنوات ونصف (٣) .

وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد حقق هدفه فى إحياء الخلافة العباسية على نحو ماذ كرنا ، فانه بقى أن يجنى ثمرة هذا الجهد وهو تقليد الخليفة العباسى له بحكم البلاد . وتم ذلك فعلا فى الرابع من شعبان عام ٦٥٩هـ عندما خرج جمع كبير ضم الخليفة والسلطان وقاضى القضاه

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٤٥ .

يبدو أن أبا الفدا شك فى صحة نسب هذا فاشار إلى أنه فى هذه السنة «قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون إسمه أحمد ، وزعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله» (المختصر جـ ٣ ص ٢١٢) .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ٣ ص ٥٤٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٥١ .

والقضاة والامراء ، حيث أقيمت لهم خيمة كبيرة بالمطرية وصعد إلى المنبر صاحب ديوان الانشا فخر الدين بن لقمان وقرأ تقليد الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس ، كما خلع الخليفة المستنصر خلعة السلطنة على السلطان الظاهر بيبرس وهى عبارة عن جبه بنفسجية اللون وعمامه سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها السلطان الظاهر بيبرس ، وإتجه الموكب الذى ضم السلطان ثم الخليفة بينما حمل شهاب الدين التقليد على رأسه فكان موكبا حافلا"(١) .

وإستمر الخليفة المستنصر بالله مقيما بالقلعة فترة من الوقت حتى إستقر الأمر على ضرورة إرساله إلى بغداد لإحياء الخلافة العباسية بها ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٠ ص ١١٢ — ١١٦ ،
المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٥٢ — ٤٥٧ ،
ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ص ١٠١ .

يشير المقريزى إلى أنه من العادات التى سادت مصر ، أن السلطان من ملوك بنى أيوب ومن قام بعدهم من ملوك الترك — أى المماليك — لابد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها راكبا والوزير بين يديه على فرس ،وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه وقد أمسكه بيديه وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه» (الخطط جـ٢ ص ١٠٦ بولاق)

كما كانت من قبل[1] وكان أن تجهز الخليفة للسير إلى بغداد وبصحبته عدد قليل من الفرسان[2] ، غير أن التتار لم يلبثوا أن تعقبوا خطواته وقتلوه عام ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م[3] .

وعندما علم الظاهر بيبرس بما حدث للخليفة المستنصر تأسف لقتله ، وأخذ فى طلب أمير عباسى جديد ليحل محل الخليفة المقتول[4] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ص ٥٤٠ .
يرى بعض الباحثين أن بيبرس خشى من بقاء الخليفة الى جواره بالقاهرة ، مما يؤدى إلى التفاف الأهالى حول الخليفة مما يتعرض معه منصب بيبرس للخطر لذلك فكر فى أبعاده عن القاهرة . انظر :

Arnold : The Caliphate, P 581.

(٢) يشير المقريزى إلى أن الظاهر بيبرس كان سيرسل صحبة الخليفة عدد كبير من الجنود ، لكن أحد اصدقاء بيبرس نصحه بألا يفعل ذلك « فإن الخليفة إذا إستقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر » فخشى بيبرس عاقبة ذلك ، وعمد إلى تقليل عدد الجند المصاحبين للخليفة أنظر : السلوك جـ١ ق ٢ ص ٤٦٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ص ٥٤٠ ،
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٢ ،

Muir : The Caliphate, P 581.

(٤) أبو الفدا : المختصر ، جـ ٣ ص ٢١٣ ،
ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ص ١٠٢ .

وكان أن وصل إلى مصر عام ٦٦١هـ /١٢٦٣م الأمير أبو العباس أحمد الذى سبق أن أشار السلطان المظفر قطز بضرورة إرساله إلى مصر ، فرحب به بيبرس ترحيبا كبيرا ، وبويع بالخلافة بعد إثبات نسبه ، ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين . وبذلك أعيدت الخلافة العباسية مرة أخرى بالقاهرة[1] .

وبعد أن تمت بيعة الخليفة الجديد ، قلد الخليفة الحاكم بأمر الله السلطان الظاهر بيبرس حكم « البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وإقامة قسيمة فى القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور[2] .

ويبدو أن الظاهر بيبرس لم يعد يرغب بعد ذلك فى إرسال الخليفة إلى بغداد ، وفضل إقامته بالقلعة بالقاهرة « عندحريمة وخدمه وغلمانه[3] » ليكون تحت أنظــــاره بإستمرار ، ولا يستطيع الخروج عن الحدود

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ١ ق ٢ ص ٤٧٧ ،
ابن إياس : بدائع الزهور ، حـ١ ص ١٠٢ .

(٢) المقريزى : الخطط حـ٢ ص ٣٠٢ (طبعة بولاق) ، السلوك حـ١ ق ٢ ص ٤٧٧ — ٤٧٩ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، حـ ٢ ص ٦١ ،
ابن إياس : بدائع الزهور ، حـ ٢ ص ١٠٤ .

المرسومة له[١] .

سلطات الخليفة العباسى

أما سلطات هذا الخليفة الجديد فلم تتعد الأمور الدينية دون سواها[٢] خاصة ذكر إسمه فى الخطبة على منابر مصر والبلاد التابعة لها ، فيما عدا جامع السلطان بالقلعة فيذكر اسم السلطان فقط فى الخطبة . كذلك كان ينقش إسم الخليفة على السكة إلى جوار اسم السلطان ، ثم أسقط بعد ذلك اسم الخليفة من السكة وأبقى فى الخطبة[٣] .

أما أهم أعماله فإنحصرت فى تقليد السلطان الجديد سلطنته ، والقيام بزيارات لتهنئة الأمراء والأعيان والكتاب والقضاه ، وفى ذلك يقول المقريزى عمدة مؤرخى مصر فى العصر المملوكى « وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فأقيم فى تلك السنة خليفة فى مصر ، قدم إليها من بغداد لقب المستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر ، وسار يريد

---

(1) Demonalynes : Muslim Institutions, P 111.

(2) Arnold : The caliphate ,P 99 — 103.

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٦١ ،
سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص١٥٥ .

بغداد فحاربه التتار وقتلوه قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر . فصار من بعده ملوك مصر من الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ويلقبونه بلقب الخلفاء وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ بل يتردد إلى أبواب الأمراء واعيان الكتاب والقضاه لتهنئتهم بالأعياد والشهور[1] » .

وكان يحدث فى بعض الأحيان عندما يخشى السلطان من الخليفة أو يتسرب إليه الشك من ناحيته ، فإن السلطان لا يتردد فى القبض على الخليفة وعزله وسجنه ، وتولية الخلافة لمن يشاء من أبناء البيت العباسى بمصر ، والذى تطمئن إليه خواطره[2] .

خلافة المستعين بالله

ومن الملاحظ عبر تاريخ الخلافة العباسية بمصر ، أنه لم يتول أى

---

(١) عن وظائف وسلطات الخليفة العباسى بمصر أنظر :
على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣٨ — ٢٤٢،
Arnold : The Caliphate, P. 97 — 99,
Muir : The Caliphate, P. 593 — 595.

(٢) ابن خلدون : العبر ، حـ٣ ص ٥٤١ ،
سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٥ .

خليفة عباسى بها أية سلطة سياسية أو حكم[1] ، سوى ماحدث فى عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) ، عندما « استقل الإمام المستعين بالله خليفة العصر بأمر الخلافة : من الكتابة على العهود ومناشير الإقطاعات والتقاليد والتواقيع والمكاتبات وغيرها ، وأفرد بالدعاء على المنابر وضرب إسمه على الدنانير والدراهم والطرز » ، ومعنى ذلك أن الخليفة المستعين تقلد حكم مصر بمفرده وأصبح فى يديه كل السلطات، مما يجعل ذلك الحدث حدثاً غير عادى فى تاريخ مصر زمن المماليك .

وهذا الحدث الغير عادى يجعلنا نتساءل : هل شخصية الخليفة المستعين تختلف عن شخصية من سبقه من خلفاء ، الأمر الذى جعله قادراً على تحقيق قدر أو نوع من السلطة لم يحققه من سبقه من خلفاء ؟ ثم ماهى الظروف التى أحاطت بتولية المستعين حكم مصر ؟ وهل استطاع المستعين

---

(١) يشير القلقشندى إلى حال الخلافة العباسية بمصر فيقول « أن الذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة ، ويستبد السلطان بماعدا ذلك :من الولاية والعزل وإقطاع الاقطاعات حتى للخليفة نفسه ،ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك » (صبح الأعشى ، جـ ٣ ص ٣٧٥) .

أن يكبح جماح أمراء المماليك فى مصر والشام ويقبض على زمام الأمور ويستمر فى حكم البلاد ؟ .

فى يوم الأثنين الرابع من شعبان عام ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) إستدعى السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ — ٨١٥هـ / ١٣٩٨ — ١٤١٢م) سلطان الديار المصرية أبا الفضل العباس بن الخليفة المتوكل على الله أبى عبد الله بن محمد « وبايعه بالخلافة بعد وفاة أبيه المذكور » فتلقب بالمستعين بالله[١] ، ولبس التشريف ، وإستقر بداره[٢] . وقد وصف المستعين هذا بأنه كان « دينا فيـــه خير وإحسان ولين ، حشما وقوراً مهابا[٣] » .

ولم يكن متوقعا أن يتمتع الخليفة المستعين بسلطات أكثر من تلك التى كانت لأسلافه من قبل ، والتى تقررت منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس كما سبق أن أشرنا .

---

(١) تذكر بعض المصادر أنه تلقب بالمعتصم أنظر : ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس ، حـ٢ ص ٢١٧ .

(٢) المقريزى : السلوك حـ٤ ق ١ ص ١٤ ، أبو المحاسن : النجوم ١٣ حـ ص ٥١ .

(٣) ابن داود : نزهة النفوس حـ ٣ ص ٢٠٩ ، المقريزى : الخطط حـ٢ ص ٢٤٢ .

غير أن حال الخليفة المستعين كان أصعب من حال من سبقه من الخلفاء ، وذلك لما وصف به السلطان فرج بن برقوق — سلطان الديار المصرية زمن خلافة المستعين — بأسوأ الأوصاف ، فيجمع المؤرخون على أنه كان « أشأم ملوك الإسلام، فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر وبلاد الشام[1] » .

الفتن والاضطرابات زمن السلطان الناصر فرج

وامتلأ حكم الناصر فرج بالاضطرابات الداخلية[2] ، حيث خرج عليه كثير من أمرائه ببلاد الشام ، و كذلك داخل مصر نفسها ، عندما إختفى سبعين يوما ، قضاها فى لهو وطرب وأكل وشرب وبسط وانشراح « فى حين عهد الأمراء إلى أخيه المنصور عبد العزيز بأمر السلطنه وإجتمع حول عبد العزيز عدد كبير من المماليك والأمراء ، مما أدى إلى حدوث عدة إضطرابات وفتن عندما عاد الناصر فرج إلى السلطنة مرة أخرى ، وأخذ

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٤ ق ١ ص ٣٢٥ ،
أبو المحاسن : النجوم ، جـ١٣ ص ١٥١ ،
زيان : الأزمات الاقتصادية ص ٧٣ .

(٢) عن تدهور الاحوال الاقتصادية زمن الناصر فرج أنظر :
زيان : الازمات الاقتصادية ص ٦٢ — ٧٥ .

يتعقب أمراء ومماليك أخيه عبد العزيز بالقتل[١]

غير أن الخطر الأكبر الذى تعرض له السلطان فرج بن برقوق جاء من جانب الأميرين « نوروز » نائب طرابلس[٢] ، و « شيخ » نائب حلب ، اللذين خرجا على السلطان فرج وأخذا فى اقطاع البلاد لأتباعهما وفى الاستيلاء على مختلف الحصون والقلاع ببلاد الشام[٣] .

وقد خشى السلطان الناصر فرج من أطماع كل من نوروز وشيخ ، لذلك قرر الخروج إلى بلاد الشام ومحاربتهما . فجهز عساكره وحمل معه خزائنه وحريمه وخرج معه الخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباسى والقضاة الأربعة ، ونزل بالريدانية فى أواخر عام ٨١٤ﻫ (١٤١٢م) ومنها إتجه إلى غزه ، وبعد أن تجمع جيشه بغزه ، أخذ فى المسير صوب دمشق .

---

(١) ابن داود الصيرفى : نزهة النفوس ، ﺣ ٢ ص ٢١٢ — ٢١٧ .

(٢) كان نوروز متزوجا من أخت السلطان الناصر فرج ، ونظرا للعداء والكراهية التى كانت فى قلب الناصر فرج تجاه نوروز ، أمر أخته بالانفصال عن زوجها نوروز .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ﺣ١٣ ص ١٢٠ — ١٢١ ،
العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٢٥٩ ،

ومما يذكر أن السلطان الناصر فرج كان كثير السكر ، شديد التهور ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من مماليك والده ، مما جعلهم يفرون منه ويلتجئون إلى عدويه نوروز وشيخ .

واتجه السلطان فرج إلى دمشق حيث كان نائبه بها الأمير تغرى بردى والد المؤرخ جمال الدين أبى المحاسن[1] — واستشاره فيما يفعله ، فنهاه تغرى بردى عن القتال وأشار عليه بالعودة إلى القاهرة ، وبث الطمأنينة فى قلوب عساكره ومماليكه الذين أصبحوا فى خوف دائم ورعب شديد من السلطان فرج .

غير أن السلطان فرج لم يأخذ بهذا الرأى ورفض العودة إلى القاهرة إلا بعد إنزال الهزيمة بكل من نوروز وشيخ . ويبدو أن السلطان الناصر فرج كان واثقا من قوته وتفوقه على نوروز وشيخ فقال عنهم لتغرى بردى « والله ماصفتهم قدامى إلا كالصيد المجروح[2] » .

---

(١) كان السلطان الناصر فرج متزوجاً من خوند فاطمه ابنة تغرى بردى وأخت جمال الدين أبى المحاسن .
(أبو المحاسن : النجوم ، حـ ١٣ ص ١٣٨) .
(٢) أبو المحاسن : النجوم حـ ١٣ ص ١٣٩ .

وفى الجانب الآخر كان كل من نوروز وشيخ ، يخشيان من قوة جيش السلطان فرج ، لذلك حاولا عدم مواجهته وأخذا يتنقلان من مكان إلى آخر ، مما دفع السلطان فرج إلى تتبعهما بجيشه الكبير ، من بلد إلى آخر حتى وصلا إلى اللجون[1] ، فتبعهم الناصر فرج فى يوم الاثنين ثالث عشر المحرم عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) « وهو سكران لا يعقل[2] » .

وقد بلغ التعب والإعياء بجيش الناصر فرج حداً لا يوصف ، مما دفع كثيراً من أمرائه إلى حثه على عدم الدخول فى المعركة إلا بعد إستراحه قصيرة يستعيد فيها جيشه قوته السابقة ، غير أن السلطان فرج أصر على الاسراع فى الدخول فى المعركة قبل هروب نوروز وشيخ إلى مكان آخر .

ولم تمض ساعات قليلة من بدء المعركة إلا ولحقت الهزيمة بجيش الناصر فرج على عكس ما كان يتوقع ، وقتل عدد كبير من كبار أمرائه ، فى حين إتجه الناصر فرج بعد هزيمته إلى دمشق[3] .

---

(١) بلد بالاردن ، بينه وبين طبريه عشرون ميلا ، وإلى الرملة اربعون ميلا . أنظر : ياقوت : معجم البلدان حـ ٥ ص ١٣ — ١٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم حـ ١٣ ص ١٤٠ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم حـ ١٣ ص ١٤٠ — ١٤١ .

وثمة عدة حقائق يجب الإشارة إليها كانت سبباً في إنزال الهزيمة بجيش الناصر فرج :

أولاً : سوء معاملة الناصر فرج لأمرائه ومماليكه ، الأمر الذى أدى إلى انسحاب معظم هؤلاء الأمراء والمماليك من جيش الناصر فرج وانضمامهم إلى جيش نوروز وشيخ .

ثانياً : عدم الأخذ بمشورة بعض الأمراء الموالين له ، تلك المشوره التى كانت توصى بعدم الدخول فى معارك ضد الأمراء الخارجين عليه والعودة إلى مصر ، وبث الطمأنينة فى قلوب جنده وأمرائه حتى يعودوا إلى ولائهم له .

ثالثاً : تسرع الناصر فرج فى الدخول فى المعركة قبل إستعادة جيشه لقوته ، بعد التعب والإعياء الذى أصابه نتيجة السير المتواصل من ١٣ ذى الحجة عام ٨١٤هـ منذ خروجه من الريدانية وحتى ١٣ محرم عام ٨١٥هـ عندما وصل إلى اللجون .

أما عن الجانب المنتصر وهو جانب نوروز وشيخ ، فقد وقع الخلاف بينهما ، فأراد كل منهما أن يكون هو « الأمير الكبير » ، لذلك لم يتفقا على من ستكون له الكلمة العليا . ويتضح لنا ذلك الخلاف عندما

أرادا كتابة رسالة إلى أمراء الديار المصرية ليعلموهم حقيقة الحال وهزيمة الناصر فرج ، فرفض كل منهما أن يتنازل للاخر بأن يكتب بإسمه ،فأشار عليهما كاتب السر فتح الله[١] — وكان بصحبة جيش الناصر الذى خرج لمحاربة نوروز وبعد هزيمة الناصر فرج فضل البقاء بجانب نوروز وشيخ — بأن يكتب كل منهما رساله بإسمه ويرسلها إلى الأمراء بمصر ، بالاضافة إلى أن يكتب الخليفة المستعين هو الآخر رسالة يشرح فيها ماأمسى عليه الحال من هزيمة الناصر فرج . ومما يذكر أن الأميرين نوروز وشيخ تحفظا على الخليفة العباسى المستعين بالله وبعض القضاه ورفضا السماح لهم بالتوجه إلى دمشق والانضمام إلى جانب الناصر فرج[٢] .

أما الناصر فرج فقد أخذ فى الاستعداد لمواصلة القتال « واستدعى القضاه والأعيان ووعدهم بكل خير وحثهم على نصرته والقيام معه ، فانقادوا له ، وأخذ فى تدبير أموره ، وتلاحقت عساكره شيئا بعد

(١) هو فتح الله بن معتصم بن نفيس الاسرائيلى الدوادى العنانى التبريزى، رئيس الأطباء وكاتب السر ، ولد بتبريز عام ٧٥٩ هـ ، ثم صحبه أباه إلى القاهرة، فنشأبها فى كفالة عمه ونظر فى الطب ،وتولى رئاسته ثم تولى كتابة السر عام ٨٠١هـ فى سلطنة الظاهر برقوق . (وعن تفاصيل حياة وشخصية فتح الله أنظر : المقريزى : الخطط حـ٣ ص ٦٢ طبعة بولاق) .

(٢) السخاوى : الذيل على رفع الاصر ، ص ٩١ .

شيء » ، وزاد من قوة الناصر فرج فى تلك الفترة إستيلاؤه على أموال ومماليك الأمير تغرى بردى نائب دمشق بعد وفاته ، وقد أنفق الناصر فرج هذه الأموال على كل الجنود التى انضمت إليه خاصة التركمان ، مماقوى من شأنه . ولم يكتف الناصر فرج بكل هذه الاستعدادات وإنما أخذ يمارس بعض الأساليب الدبلوماسية ، فأشار على قاضى القضاة جلال الدين البلقينى وبقية قضاة مصر ودمشق الذين كانوا معه بدمشق ، وجماعة من أرباب الدولة ، على المناداة بأن السلطان أمر بإبطال المكوس وإزالة المظالم ، حتى يجذب إليه قلوب الشاميين ، وبالفعل جاءت هذه السياسة بنتائجها الطيبة « فعظم ميل الشاميين إليه — أى .إلى الناصر فرج — وتعصبوا له ، وصار غالبهم من حزبه ، وتغنوا على لسانه :

« أنا سلطان ابن سلطان وأنت ياشيخ أمير[1] » .

وهنا كان على نوروز وشيخ أن يعملا بسرعة خشية إجتماع كافة الأمراء فى جانب الناصر فرج وتعاطفهم معه بصفته السلطان وابن أستاذهم السلطان الظاهر برقوق ، فى حين أنهما كانا متفرقين كل يعتبر نفسه الأمير الكبير .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٣ ص ١٤٢ - ١٤٤.

تقليد الخليفة المستعين السلطنة

وعندما فشل نوروز وشيخ في الوصول إلى حل لإنقاذ موقفهما السيء، أستدعيا كاتب السر فتح الله وسألاه المشوره فيما يعملاه ، ويروى المقريزى نقلا عما ذكره له فتح الله كاتب السر ، أن فتح الله قال لهما : « ماهكذا يقاتل السلطان » وذكر لهما ماهم فيه من الفرقة ، وعدم الإنقياد إلى واحد منهما وإن كلا منهما يرى أنه الأمير الكبير ، وهذا أمر لابد فيه من إقامة واحد ترجع الأمور كلها إليه وتصدر عنه وأشار بأن « يقيموا الخليفة يتحدث ، وقوموا معه ، فإن أحداً لايتجاسر عليه » . فقبل كل من نوروز وشيخ هذه المشورة دون تردد[1] .

وهنا نتوقف برهة لنناقش الأسباب التى دفعت فتح الله كاتب السر إلى التفكير فى تقليد الخليفة العباسى أمور البلاد ، وللأسباب التى من أجلها قبل كل من نوروز وشيخ ولاية الخليفة العباسى لأمور البلاد دون تردد .

لقد أحس فتح الله كاتب السر أن الأمور قاربت على الخروج من

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٦٢ ،

Muir : Tqe Mamelnke, P 129.

يد الأميرين نوروز وشيخ بعد إستعادة السلطان الناصر فرج لقوته ، خاصة وأن كلا من نوروز وشيخ مختلفان ، فرأى — فتح الله — الاستعانة بالخليفة العباسى ، وذلك لما يتمتع به الخليفة العباسى من تأثير على مختلف طوائف المجتمع بصفته خليفة المسلمين .

لذلك رأى فتح الله أن يصدر الخليفة فتوى شرعية يعلن فيها خلع السلطان الناصر فرج من السلطنة ويوضح فى تلك الفتوى أن الناصر فرج خرج عن الدين ووقع فى المحرمات ، وبذلك يضمن خروج كافة الأمراء والجنود على الناصر فرج والانفضاض من حوله نتيجة عدم شرعية حكمه ، وفى نفس الوقت يعلن على الملأ بأن الخليفة المستعين هو صاحب هذا الأمر وحاكم البلاد ، فلايستطيع أحد الخروج عليه . وفى نفس الوقت يعيد الوئام بين كل من نوروز وشيخ ، بعدم تولية أحدهما فتثار ثائرة الآخر . وقد قبل كل من نوروز وشيخ هذا الحل ، وذلك حلا مؤقتا لماثار بينهما من خلاف حول أيهما ستؤول إليه السلطنة[1] ؟ واستراح الأثنان لهذا الحل ، حتى يستطيعا من وراء الخليفة أن يتمما هزيمة الناصر فرج ، ثم يستطيع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ، جـ ١٣ ص ١٩٣ .

القوى منهما أن يتخلص من الآخر ويقبض على زمام الأمور فيما بعد ، خاصة وأن الخليفة كان لا يتمتع بقوة عسكرية ضاربة يستطيع بها منازلة أحدهم إذا حاول أن يقصيه عن عرش البلاد .

إذن كانت ولاية الخليفة المستعين للبلاد ولاية مؤقته ، أراد بها الأمراء المتصارعون أن تكون وسيلة للتخلص نهائيا من السلطان الناصر فرج المتحصن بدمشق ، ثم ستاراً يستطيع من ورائه أحد هؤلاء الأمراء تدبير مؤامراته للانفراد بحكم البلاد .

وقد فهم الخليفة المستعين كل هذه الأمور فهماً كاملا ، خاصة وأنه نشأ وتربى بمصر وشاهد وسمع بالمؤامرت والدسائس التى قام بها الأمراء المماليك للقبض على الأمور ، وعلم علم اليقين أنه من المستحيل أن يترك هؤلاء الأمراء حكم مصر والشام يخرج من أيديهم إلى أيدى الخلفاء ، وعلم أيضا أن هذا الاجراء ماهو إلا حيلة للوصول إلى هدف معين هو فى النهاية الوصول إلى الحكم . لذلك رفض رفضا قاطعا ماعرضه عليه كاتب السر فتح الله من تولية حكم البلاد. ولكنه أجبر على القبول حينما أوقعوه فى خلاف شديد مع السلطان الناصر فرج حتى يقطعوا عليه طريق الرجعة

ويجعلوه مضطرا لقبول ولاية البلاد وإصدار فتوى بخلع الناصر فرج[١] .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن سياسة الخليفة المستعين سلطان الديار المصرية ، نشير إلى أن ولاية الخليفة المستعين بالله العباسى للبلاد لم تكن هى أول محاولة قام بها الخلفاء العباسيون بالقاهرة لتولى حكم مصر زمن المماليك .

فتشير المصادر التاريخية إلى أن وصول الخليفة المستعين إلى كرسى الحكم بالديار المصرية لم تكن هى أول محاولة قام بهاالخلفاء العباسيون لشغل منصب السلطنه ، وإنما حدث زمن والده الخليفة المتوكل وبالتحديد عام ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) بعد هزيمة السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤—٧٧٨هـ/ ١٣٦٢ — ١٣٧٦م) بالعقبة وهروبه إلى جهة الديار المصرية أن اتفق الجميع « الأمراء وغيرهم وتوجهوا إلى الخليفة المتوكل على الله وكان أيضا فى صحبة السلطان الملك الأشرف وقالوا له : ياأمير المؤمنين تسلطن ونحن بين يديك » فامتنع الخليفة المتوكل عن قبول السلطنة[٢] .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، حـ ٢ ص ٨٥ ،

ابن إياس : بدائع الزهور ، حـ١ ص ٣٥٨ .

Muir : The Mameluke, P 129.

(٢) ابن خلدون : العبر ، حـ ٥ ص ٤٦٥ ، =

وإذا كان الخليفة المتوكل رفض قبول السلطنة التى عرضت عليه عقب هزيمة الأشرف ، إلا أنه وبعد سلطنة الظاهر برقوق (عام ٧٨٤/هـ ١٣٨٢م) فـكر جدياً فى الإطاحه بحكم برقوق وأن يتقلد هو حكم البلاد. فيحكى المؤرخون أنه فى عام ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م وصل إلى مسامع السلطان الظاهر برقوق أن الخليفة المتوكل على الله اتفق مع الأمير قرط بن عمر التركمانى المعزول وإبراهيم الملائى ، وجمع جماعة من الأكراد والتركمان وهم نحو من ثمانمائه فارس ، واتفقوا على الوثوب على السلطان برقوق عندما يقوم بالعب بالـــكره ويقتلونه « ويمـكنون الخليفة من الأمر والاستبداد بالملك [1] » . ولم يلبث أن استدعى السلطـان الظـاهر برقوق الخليفـة الذى انـكر مانسب إليه ، أمـا الأميران قرط وإبراهيم

= المقريزى : السلوك جـ ٣ ق ٩ ص ٢٨٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، جـ ١١ ص ٧٨ — ٧٩ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ١١٩ .

(١) يرى بعض الباحثين أن الضغط والتضييق الذى لقيه خلفاء العصر المملوكى الأول كان سببا فى محاولة خلفاء العصر المملوكى الثانى للوثوب والتآمر على سلاطين المماليك .

انظر : إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسه ص ٥٣ .

فقد اعترفا بتفاصيل هذه الحادثة ، فعوقب الجميع، وتم سجن الخليفة بإحدى سجون القلعة[١] .

وإذا كان الخليفة المتوكل قد أعيد بعد فترة إلى الخلافة ، وشهد وفاة برقوق (عام ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) ، وعرض عليه الأمراء ملك مصر بعد زوال دولة برقوق ، فانه « تبرم من الدخول فى الملك وأشار باعادة حاجى خليفة[٢] » . ويبدو أن المتوكل بعد هذه المدة الطويلة التى قضاها وراء كواليس الحكم خلف السلاطين والأمراء وماشاهده من تكالب الأمراء على السلطنة والمؤامرات والدسائس التى يقومون بها من أجل الوصول إلى مصالحهم الخاصة ، وإيمانه التام بأنه لن يستطيع أحد الأفراد

---

(١) المقريزى : السلوك حـ ٣ ق١ ص ٢٨٠ ،
أبو المحاسن : النجوم ، حـ ١١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ،
السيوطى : حسن المحاضرة حـ ٢ ص ٨٥ .

يشير ابن خلدون إلى سبب طريف أدى إلى فشل حركة الخليفة المتوكل فيقول : « أنه ـ أى الخليفة ـ داخل فى ذلك بعض ضعاف العقول من أمراء الترك ممن لايؤبه له » .

(العبر حـ ٥ ص ٤٧٥) .

(٢) السيوطى : حسن المحاضره ، حـ ٢ ص ٨٥ .

أن يقوم بمهام الحكم إلا إذا سانده جند أقوياء من أمراء ومماليك . لذلك رفض قبول السلطنه والملك عندما عرضت عليه عقب زوال دولة برقوق كما سبق أن ذكرنا .

ويبدو أن الخليفة المستعين بن الخليفة المتوكل قد شعر بنفس شعور والده ، لذلك أصرَّ على عدم قبول السلطنه عندما عرضت عليه كما سبق أن أشرنا ، لكنه أجبر على قبولها[١] .

وبقبول الخليفة المستعين السلطنه « فرح الأمراء بذلك وباسوه بأجمعهم ، وقبلوا يده ، وحلفوا له على الطاعة والوفاء بالإيمان المغلظه التي لا يمكن التوريه فيها » ووقف معظم الأمراء بين يدى الخليفة العباسى على مراتبهم يؤدون إلية الخدمه وقبلوا بين يديه الأرض كما كانوا يفعلون من قبل مع سلاطين المماليك[٢].

---

(1) Muir : The Mameluke. P 130 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ١٨٧ - ١٩٠ ،

من الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين عد المستعين من جملة السلاطين بالديار المصرية والبعض الآخر عدة من جملة الخلفاء .

أنظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٧ .

وقد أثمرت السياسة التى اتبعها كل من نوروز وشيخ فى تنصيب الخليفة المستعين حاكما على البلاد والفتوى الشرعية بخلع السلطان الناصر فرج ، أثمرت هذه السياسة ثمارها ، فانقسم الأمراء والجنود للوالون الناصر فرج إلى قسمين :

(ا) قسم يرى أن مخالفة السلطان الناصر كفر ، لأن الناصر عزل عن السلطنه ، ومن قاتل معه فقد عصى الله ورسوله .

(ب) قسم آخر يرى أن القتال مع السلطان الناصر واجب وأنه باق فى السلطنة ، ومن قاتلة إنما هو باغ عليه وخارج عن طاعته[1] .

غير أن أنصار الفريق الأول كانوا أكثر بكثير من أنصار الفريق الثانى ، مما أدى إلى أن » أخذ أمر الملك الناصر فى أدبار » ، وانحلت أهل دمشق عن الملك الناصر وخافوا عاقبة مخالفة أمير المؤمنين فى الدنيا والآخرة » . ويقرر جمال الدين أبو المحاسن وغيره من المؤرخين إلى أنه « لولا الخليفة ماانتظم لهم أمر — أى نوروز وشيخ — لعظم ميل التركمان والعامة للملك الناصر[2] » .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم حـ ١٣ ص ١٤٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، حـ ١٣ ص ١٤٨ ، ١٩٣ - ١٩٤ ، العينى : السيف المهند ، ص ٢٥٩ .

ولكن حدث فى تلك الأثناء أن وصلت جموع التركمان نجدة للسلطان الناصر ، مما قوى من شأنه ، وأوقع فى قلوب نوروز وشيخ وبقية الأمراء ، مما دفعهم إلى الاجتماع وإعادة تقرير ولاية الخليفة عليهم حتى يقفوا جميعا موقفاً واحداً من وراء هذا الخليفة ، وتشجيعا للخليفة وحثه على الثبات « حلفوا بأجمعهم يمينا مغلظا لأمير المؤمنين بأنهم يلزمون طاعته ، ويأتمرون بأمره ، وأنهم رضوا بأنه الحاكم عليهم ، وانه يستبد بالأمور من غير مراجعة أحد ، وانهم لا يسلطنون أحداً غيره طول حياته »[1] . ومن القسم السابق يبدو لنا أن الخليفة بدأ يتراجع فى موقفه نتيجة علمه اليقين أن هؤلاء الأمراء لم يختاروه حاكما عليهم إلا لفترة مؤقتة وحتى تهدأ الأمور ثم يقومون بعزله وتنصيب الأمير القوى ، لذلك أقسموا له بأنهم « لا يسلطنون أحداً غيره طول حياته » تطميناً له .

ولم يكن أمام الخليفة المستعين إلا طاعة هؤلاء الأمراء ، ومن ثم قبل هذه الوظيفة المؤقتة .

وأشار الأمراء على الخليفة المستعين بأن يكتب إلى أهل الديار المصرية يخبرهم بخلع السلطان الناصر فرج وخروجه على الدين ويعلمهم بنبأ توليته

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٣ ص ١٩٣ .

عرش البلاد [1] ، كما ضمّن كتابه إزالة المكوس والمظالم من سائر الأعمال [2] ، كما أشاروا أيضا بأن يكتب الخليفة والقضاة محضراً يحكمون بمقتضاه بإراقة دم السلطان الناصر فرج لكونه خارجاً عن الدين [3] .

ونتج عن ذلك أن انفصل عن السلطان الناصر فرج عدد كبير من إمرائه واتباعه ، مما أدى إلى ضعف موقفه ، بينما اشتد نوروز وشيخ فى محاصرة دمشق ، الأمر الذى دفع السلطان الناصر إلى الالتجاء إلى قلعة دمشق والتحصن بها ، فما كان من نوروز وشيخ إلا أن شددا الحصار على

---

(١) ذكر القلقشندى نص رسالة أرسلها أمراء الديار المصرية إلى الخليفة المستعين بعد هزيمة الناصر فرج ، رداً على رسالة الخليفة المستعين لهم . (أنظر نص هذه الرسالة فى كتاب صبح الأعشى جـ ٨ ص ٣٧٩ — ٣٨٠) .

(٢) وقد أصدر الخليفة المستعين قراراً بعزل جلال الدين البلقينى عن قضاء الشافعية وذلك لان البلقينى كان فى صحبة الناصر فرج ومقيم معه بدمشق وقد أثر البلقينى هذا العزل ، وبعد أن تصافى مع المؤيد شيخ عمل جاهداً على الاطاحة بخلافة المستعين . أنظر :

أبو المحاسن : النجوم جـ ١٣ ص ٩٢ ،

السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٣ ص ١٩٣ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٨٦ .

قلعة دمشق ، وفى تلك الأثناء تسرب معظم جنود وأمراء الناصر فرج وانضموا إلى جانب الخليفة المستعين ونورور وشيخ [١] . وأخيرا اضطر الناصر فرج إلى النزول من قلعة دمشق وتسليم نفسه إلى الأمير شيخ . فاجتمع الخليفة بالأمراء والفقهاء والعلماء المصريين والشاميين وقرروا جميعا إراقة دم الملك الناصر فرج ، ونفذ حكم الاعدام فى شخص الناصر فرج فى ليلة السبت السادس عشر من صفر عام ٨١٥ هـ ، على الرغم من معارضة الأمير شيخ فى قتل الناصر فرج [٢] .

وإذا كان الخوف من السلطان الناصر فرج هو الذى دفع كبار الأمراء ومن بينهم نوروز وشيخ إلى المناداة بسلطة الخليفة المستعين ، فإن التخلص من السلطان الناصر على النحو السابق أزال ذلك الخوف ، ولكن الأمور لم تهدأ بعد ، إذ ظل الخلاف بين كل من نوروز وشيخ قائما ، فكل منهما يريد أن ينتهز الفرصة للانقضاض على السلطنة « والناس يترقبون وقوع الفتنة » ، ونتيجة تخوف الأمراء من بعضهم البعض أبقى على وجود الخليفة

---

(١) ساعد على ذلك الأمان الذى أصدره الخليفة المستعين لكل الموالين للناصر فرج وهو « من حضر إلى أمير المؤمنين خليفة سيد المرسلين فهو آمن » .
أنظر : السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨٦ .

(٢) يبدو أن السبب الذى دفع شيخ فى معارضة سفك دم الناصر فرج هو أنه أراد استغلاله فيما بعد لتهديد نوروز إذا حاول الانفراد بالحكم .

العباسى بالسلطنة واتفق كل من نوروز وشيخ على أن يسيرا إلى مصر صحبة الخليفة المستعين بالله ويكونا فى خدمته ، فيكون الأمير شيخ أميرا كبيرا ويشغل وظيفة أتابك العسكر بالديار المصرية ، ويتولى نوروز رأس نوبة الأمراء ، على أن يكون اقطاع كل منهما بالتساوى .

وأثناء وجود الخليفة بدمشق بعد التخلص من السلطان الناصر فرج كان نوروز وشيخ يجلسان إلى جواره ، فيجلس شيخ عن يمينه بينما يجلس نوروز عن يساره .

وأخيرا اتفق الأميران الكبيران — نوروز وشيخ — على أن يستقر نوروز بالشام وفوض له الخليفة المستعين « كفالة الشام جميعه : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد وغزه ، وجعل له أن يعين الأمريات والأقطاعات لمن يريد ، وأن يولى نواب القلاع الشامية والسواحل وغيرها لمن أراد من غير مراجعة فى ذلك ، غير أنه يطالع الخليفة بمن يستقر به فى شىء من ذلك ليجهز اليه تشريفا » . وهكذا خرج حكم بلاد الشام عن يد الخليفة « السلطان » المستعين ، وأصبح فى يد نوروز . ولم يعد للخليفة أى حق سوى تشريفه بمنح الخلع الشريفة والتقاليد لمن يختاره ويقرة نوروز فى حكم مختلف بلاد وقرى الشام . فى حين استقر الرأى على أن يتوجه الأمير شيخ إلى مصر صحبة الخليفة ، ويكون أتابك العساكر بها [1] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٢٠٠ — ٢٠١ ،

=

وهكذا انقسم الأميران الكبيران حكم البلاد، فكان الشام من نصيب نوروز في حين كانت مصر من نصيب شيخ، لكن إذا كان نوروز قد قنع ببلاد الشام ، فإنه أخذ يمارس فيها سلطاته بدون منازع حيث لا يوجد بها سلطان ولا خليفة ، أما بالنسبة للأمير شيخ ، فإن الديار المصرية كانت هي مقر الحكم والسلطان ، لذلك كان على شيخ أن يعمل إذا أراد أن ينفرد هو الآخر بحكم الديار المصرية، أن يعمل على تقويض نفوذ الخليفة العباسي سلطان البلاد .

وأخذ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجنود في الاستعداد للعودة إلى الديار المصرية ، وأرسل إلى أهل الديار المصرية يعلمهم بقرب وصوله ، كما أصدر أمراً بإطلاق سراح الأمراء المسجونين بالاسكندرية .

وفي ظاهر الأمر بدا الخليفة وكأنه الحاكم الفعلي للبلاد في تلك الفترة ، إذ أخذت رسائله وكتبه تخرج وفي مقدمتها هذه العبارة : من عبد الله ووليه الامام المستعين بالله ، وخليفة رب العالمين ، وابن عم سيد المرسلين ، المفترض طاعته على الخلق أجمعين ، أعز الله ببقائه الدين » [1] كما ضربت

= ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٥٨.

Muir : The Mameluke, p 130.

(١) المقريزي : السلوك ج ٤ ق ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ،
أبو المحاسن : النجوم ج ١٣ ص ٢٠١ ،
السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

السكة بإسمه وحده ، ودعى له بمفرده على المنابر ، كما كانت علامته سارية على التقليد والتوقيع والمكاتبات [١] .

وفى يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) بدأ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجند فى المسير جنوبا تجاه مصر .

ومن الجدير بالذكر أن أهل الديار المصرية فرحوا فرحاً زائدا بتولية الخليفة المستعين حكم الديار المصرية ، ظنا منهم أنهم بذلك قد تخلصوا نهائيا من حكم المماليك بحرية كانوا أم جراكسة، وخرجوا جميعا لإستقبال الخليفة المستعين ، وتلقاه « الناس » بقطيا والصالحية وبلبيس « وحصل للناس من الفرح بذلك ما لا مزيد عليه » ، كما كتبت عدة قصائد فى مدح المستعين والخلفاء منها [٢] :

---

(١) وهذا على العكس من حال وسلطات الخليفة المستعين قبل توليه السلطنة، إذ كان مفقود السلطة مثله مثل من سبقه من الخلفاء ليس له سوى العهد إلى السلطان بالحكم والدعاء له على المنابر قبل السلطان .

(أنظر القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٢٦٣) .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة : جـ ٢ ص ٨٦ .

الملك أصبح ثابت الأساس

بالمستعين العادل العباسى

رجعت مكانة آل عم المصطفى

لمحلها من بعد طول تناس

الأمير شيخ يحجر على الخليفة المستعين سلطان الديار المصرية

وبوصول الخليفة المستعين العباسى إلى الديار المصرية فى يوم الثلاثاء الثانى من شهر ربيع الآخر عام ٨١٥ هـ، تبـدأ مرحلة ثانيـة من مراحل حكمه ، فاذا كانت الفترة الممتدة منذ ولايته الحكم أثناء محاربة النـاصر فرج وحتى رحيله إلى الديار المصرية فى يوم السبت الثـامن عشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٥ هـ تمثل المرحلة الأولى من حكمه ، والتى حرص أثنائها كافة الأمراء على حفظ شخصيته وهيبته ، وحرصوا أيضا على عدم المساس به والتظاهر بإحترامه والقيام بالخدمة بين يديه ، وإطاعة أوامره . ويعود ذلك كله إلى الظروف التى أحاطت بالأميرين الـكبيرين نوروز وشيخ ، وصراعهما ضد السلطان الناصر فرج ، ثم تخوفهما من بعضهما البعض .

أما وبعد التخلص من الناصر فرج واتفاقهما على تقسيم البلاد فيما بينهم وأن يكون نوروز بالشام وشيخ بمصر ، بدأ الأمر يختلف فى علاقاتهما مع

الخليفة العباسي المستعين فقد أحس كلاهما أنه في غير حاجة للخليفة العباسي، وأخذ كل منهما يعمل لتوطيد نفوذه ومركزه. وإذا كان الأمير نوروز قد انفرد بحكم بلاد الشام وأصبح من حقه حكم بلاد الشام حكماً كاملاً لايراجع الخليفة فيه إلا «بأن يستقر في شيء ليجهز — أي الخليفة إليه تشريفا» ، فإن الأمر اختلف بالنسبة لوضع الأمير شيخ بمصر الذي كان بجواره الخليفة. وكان على الأمير شيخ هو الآخر أن يبذل كل مافي وسعه من أجل الانفراد بالحكم.

وبعد وصول الخليفة المستعين إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء الثاني من شهر ربيع الثاني عام ٨١٥ هـ، شق الخليفة القاهرة وصعد إلى القلعة ونزل بالقصر «على عادة السلاطين» ويبدو أن الأمير شيخ كان يتوقع أن الخليفة لن يذهب إلى القصر وإنما سيتوجه إلى داره بالقرب من المشهد النفيسي. ومن ثم بدأ يحس بعدم ارتياح لتصرف الخليفة وبدأ يشك في أمره، ولذلك فكر في العمل بسرعة من أجل الحد من نفوذ الخليفة حتى لايقوى شأنه ويمثل خطراً يهدد الأمير شيخ نفسه.

لذلك أمر الأمير شيخ كافة الأمراء وأرباب الدولة بألا يصعدوا إلى الخليفة وإنما يترددوا على باب السلسلة حيث كان يقيم الأمير شيخ، وأبطل المواكب السلطانية التي كانت تقام عادة للسلاطين، وقبض على الأمراء.

الذين شك فى أخلاصهم له ، وأخذ فى التضييق على الخليفة المستعين ومنعه من مباشرة مهامه فى التولية والعزل ، ومارس على الخليفة نوعا من الضغط من أجل تقليدة جميع أمور البلاد المصرية ، وأخيراً وبعد أن خشى الخليفة المستعين من عاقبة الأمير شيخ ، رضخ لكل مطالبة ، وفى الموكب الكبير الذى عقد بالقصر السلطانى وحضره الأمير شيخ وسائر الأمراء « خلع الخليفة على الأمير شيخ بإستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية ... وأنه يولى ويعزل من غير مراجعة » .

وبمقتضى هذا التقليد الذى منحه الخليفة للأمير شيخ ، خرج الحكم عن يد الخليفة إلى يد الأمير شيخ ، الذى أخذ يمارس سلطاته وتلقب بلقب « نظام الملك[1] » .

ولم يانع الأمير شيخ بما حصل عليه ، وإنما أقام الأمير جقمق الأرغون شادى دواداراً للخليفة ، وكان جقمق هذا تابعاً مخلصاً للأمير شيخ ، وبذلك ضمن شيخ عدم تصرف الخليفة فى أى أمر إلا بعد علمه به عن طريق جقمق الدوادار[2] .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٨٩ ،
العينى : السيف المهند ص ٣٠٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ، ج ١٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وعلى هذا النحو قبض الأمير شيخ على كافة الأمور وصار للخليفة على رأى جمال الدين أبى المحاسن « الإسم فى السلطنة لاغير ، وماعدا ذلك متعلق بالأمير شيخ[1] » .

وإذا كان الأمير شيخ قد استطاع التغلب فى سهولة على الخليفة العباسى ويستولى على كل السلطات ، فإن عدوه الأول كان مقيماً بالشام وهو الأمير نوروز ، الذى أخذ يرقب تطورات الموقف فى مصر فى قلق بالغ ، وقد اعتمد نوروز على أحد الأمراء الكبار المقيمين بمصر ، وهو الأمير بكتمر جلق ، فى الحد من نفوذ الأمير شيخ ، وكان الأمير نفسه يخشى من بكتمر جلق ، لكن حدث فى شهر جمادى الآخرة عام ٨١٥هـ أن توفى الأمير بكتمر جلق ، مما أتاح الفرصة للأمير شيخ لتنفيذ بقية مخططه فى الوصول إلى عرش البلاد .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم حـ ١٣ ص ٢٠٦ .

ويشير ابن إياس إلى أن الخليفة المستعين كان فى مدة سلطنته مع الأتابكى شيخ فى غاية الضنك ليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط والأمر كله للاتابكى شيخ (بدائع الزهور حـ ١ ص ٣٥٨) .

خلع الخليفة المستعين من السلطنة

وبعد أقل من شهرين من وفاة الأمير بكتمر جلق جمع الأمير شيخ أمراء الديار المصرية وحدثهم فى أمر السلطنة ، فوافقوا على سلطنته[١] .

ومن طريف مايذكر أنه وأثناء انعقاد الموكب على عادته بالأسطبل السلطانى عند الأمير شيخ ، اجتمع القضاه الأربعة ومعهم فتح الله كاتب السر الذى قال لهم : « أن الأحوال ضائعه ولم يعهد أهل نواحى مصر اسم خليفة ، ولاتستقيم الأمور إلا بأن يقوم سلطان على العادة[٢] » .

فاستقر رأى الجميع على سلطنة الأمير شيخ و « خلع الخليفة المستعين بالله العباسى من السلطنة » فى يوم الأثنين أول شعبان عام ٨١٥هـ[٣] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٢) يشير ابن إياس إلى أن المؤيد شيخ جمع القضاة الاربعة وسائر الامراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة وكثر الفساد فى البر والبحر واضطربت الأحوال وأن الوقت محتاج لاقامة سلطان تركى له سطوة يقمع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده . انظر : بدائع الزهور ، جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٦٢ (بولاق) .

ومن الجدير بالذكر أن فتح الله كاتب السر هذا ، كان هو صاحب فكرة سلطنة الخليفة المستعين[1] !! .

وعندما صعد الأمراء إلى الخليفة ليعلموه صورة الحال ويأخذوا موافقته على بيعة السلطان شيخ الذى تلقب بالمؤيد ، تردد كثيرا ثم وافق بشرط أن ينزل من القلعة ويستقر بداره ، وكأنه خشى على نفسه من إغتيال شيخ له ، غير أن شيخ استبقاه بالقلعة تحت يده[2] ، إلى أن تستقر له الأمور ، وحتى لا يشكل الخليفة المستعين له أى خطر[3] .

ثم قرر السلطان المؤيد شيخ بعد ذلك خلع الخليفة المستعين من الخلافة وولى مكانه أخاه داود الذى تلقب بالمعتضد[4] .

= أبو المحاسن : النجوم جـ١٣ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ،
ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٢ ص ٣ .

(١) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٦٢ (بولاق) ،
العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ، ص ٣١١ .

(٢) العينى : السيف المهند فى سيره الملك المؤيد ، ص ٣١٤ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ،
السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٨٩ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٢٤٤ ، ٢٧٣ ،
العينى : السيف المهند ص ٣٢١ . =

وجدير بالذكر أن الأمير نوروز بالشام لم يعترف بشرعية سلطنة المؤيد شيخ ، واستمر متمسكا بشرعية حكم الخليفة المستعين ، واستمر يخطب له على المنابر بدمشق كما كانت العملة تسك باسمه ، وذلك نتيجة تخوفه الشديد من سطوة الأمير شيخ[1] وأخذ نوروز يعد العدة لمحاربة شيخ ، غير أن نوروز لم يلبث أن قتل عام ٨١٧هـ (١٤١٤م) دون أن يحقق شيئا مما أراده[2] .

ومن المفيد أن نذكر أنه لو تحقق انتصار الأمير نوروز على شيخ ، لما استبقى الخليفة العباسي في الحكم ، ولفعل به مثلما فعل المؤيد شيخ !! .

وهكذا تنتهي تلك الصفحة من صفحات تاريخ الخلافة العباسية

= ومن الطريف أن الذى ساعد الأمير شيخ على عزل الخليفه المستعين من الخلافه هو القاضي جلال الدين البلقيني الذى رتب دعوى شرعيه حكم بمقتضاها بخلع المستعين من الخلافه ، والواقع أن البلقيني إنما أراد الانتقام من الخليفة المستعين الذى سبق وأن عزله عن قضاء الشافعية عقب تولية الحكم عام ٨١٥هـ .

(انظر : حسن المحاضرة جـ٢ ص٨٦ ، ٨٩ - ٩٠ ، ابن إياس : بدائع الزهور : جـ١ ص ٣٥٨) .

(١) المقريزى : السلوك جـ٤ ق ١ ص ٢٥٥ ،
العيني : السيف المهند ص ٣٢٦ .

(٢) العيني : السيف المهند ص ٣١٣ ،
ابن إياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٣ .

بالقاهرة فى ظل حكم المماليك ، الذين إتخذوا من الخلافة والخليفة ستاراً يخفون وراءه نواياهم الحقيقية فى الوصول إلى مراكز الحكم والسلطان[1] . فى حين أن الديار المصرية ذاتها استفادت كثيراً من وجود الخلافة العباسية بها ولا أدل على ذلك من تصريح السيوطى وهو أحد مؤرخى وعلماء مصر فى العصر المملوكى بقوله : « واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رجال الفضلاء ، وهذا سر من أسرار الله أودعه فى الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الايمان والكتاب[2] » .

(1) Demombynes : Muslim Institutions, P 112 .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، حـ٢ ص ٩٢ .

المصادر والمراجع

- إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة
القاهرة ١٩٦٠ .

- ابن أبى الفضائل : (المفضل ت ٦٧٢ هـ) النهج السديد والدر الفريد
فيما بعد تاريخ ابن العميد باريس ١٩٤٠ .

- ابن إياس : (أبو البركات محمد بن أحمد ت ٩٣٠ هـ) بدائع
الزهور بولاق ١٨٨٦ .

- ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ) تاريخ ابن خلدون
أو العبر وديوان المبتدأ والخبر القاهرة ١٩٧١ .

- ابن داود : (على بن داود الصيرفى ت ٩٠٠ هـ) نزهة النفوس
والأبدان القاهرة ١٩٧١ .

- ابن شاكر : (فخر الدين محمد أحمد الكتبى ت ٧٦٤ هـ) فوات
الوفيات القاهرة ١٩٥١ .

- ابن طباطبا : (محمد بن على ت ٧٠٩ هـ) الفخرى فى الآداب السلطانية
القاهرة ١٩٢٧ .

- أبو الفدا : (عماد الدين إسماعيل ٧٣٢هـ) المختصر فى أخبار البشر القاهرة ١٣٢٥هـ ؛

- أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ت ٨٧٤هـ)النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة القاهرة ١٩٧٢ .

- أرنولد : Arnold(thomas): The Calipate oxford, 1924

- ديموبينز : Demombynes (Maurice): Muslim Institutions, London, 1968.

- زيان : الأزمات الاقتصادية والأوبئه فى مصر عصر سلاطين المماليك القاهرة ١٩٧٦ .

- السخاوى : (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠١هـ) الذيل على رفع الإصر القاهرة ١٩٦٦ .

- سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك القاهرة ١٩٦٢ .

- السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن ٩١١هـ) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة القاهرة ١٣٨٧هـ

تاريخ الخلفا دمشق ١٩٣٢م

- على إبراهيم حسن : دراسات فى عصر المماليك البحرية القاهرة ١٩٤٨ .

- العينى : (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ) السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد القاهرة ١٩٦٧

- القلقشندى : (أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ) صبح الأعشى فى صناعة الانشا طبعة دار الكتب المصرية

- المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) السلوك لمعرفه دول الملوك القاهرة ١٩٧٠

المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار

بولاق ١٢٧٠هـ .

- ميور **Muir (William) : The Caliphate its rise and fall : oxford, 1891.**

- ياقوت : (شهاب الدين أبى عبد الله ت ٦٢٦هـ) معجم البلدان

بيروت ١٩٦٨ .

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب

٢٥٩١ / ١٩٧٨م

الترقيم الدولى ٤ — ٤١ — ٧٢٥٧ — ٩٧٧

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت ٩١٦٠٧٦